حول القرارات الاقتصادية الأخيرة

صراحة الدكاترة:غلطة جماهيرية!

أكتوبر: 1977/1/23

بقلم: أنيس منصور.

الاقتصاد كما في الطب هناك نظريتان:

إحداهما أن تصارح المريض بمرضه. والأخرى أن تصارح أهل المريض وتخفي ذلك عن المريض نفسه.

ومصارحة المريض هي جزء من المصارحة العامة.... يجب أن يعرف حتى لو أدى ذلك إلى تحطيم حالته المعنوية. إني لن أنسى ما قاله لي طبيب بنج في مستشفى جاردن سيتي. تمنيت أن أقتله في اللحظة التي أخبرني فيها أنه لا أمل: وأن والدتي سوف تموت. وأنه من الأفضل أن أوفر أموالي على نفسي...

فالحي أهم من الميت!

صراحة رهيبة، ولكن الطبيب قال الحق... حتى الموت.. ورأي آخر يقول: إن الطبيب لا يفقد الأمل وإنما يجب عليه أن يخفف عن المريض. فمادام المريض يتنفس... ومادام ينظر إليك وأنت تتحدث إليه فمعنى ذلك أن يعمل... وأن قلبه يعمل وأنه ما يزال على قيد الحياة. وما دام حياً فهناك أمل... ثم إن الطب لا يعرف كل أسرار الجسم الإنساني. فقد حدثت معجزات كثيرة...

وحتى إذا كانت هناك حالات كثيرة ميئوس منها تماما، والمريض يتعذب فلا يحق للطبيب أن ينهي عذاب المريض بالقضاء عليه.. بل لابد من موافقة أهل المريض على ذلك... وفي الاقتصاد : ما الذي يمكن أن يقال عن الميزانية المريضة؟.

إن مصر مديونية من عشرين عاما.. والديون بفوائد والفوائد تتراكم وأرضنا لا تطعمنا. وماؤنا لا يسقينا. ولذلك فنحن نشتري من الخارج كل شيء. أي أننا نعيش حياة

مستوردة من أول الرغيف حتى آخر ملعقة سكر في كوب الشاي- أظن أن الكوب نفسها صناعة محلية!

ثم إننا نتزايد كل سنة مليون مواطن رضيع ..وهذا الرضيع له كل حقوق المواطنين الكبار في الطعام والشراب والوقوف في الأتوبيس والنوم على سرير في مستشفى والجلوس في المدرسة والمشي على شوارع مرصوفة ومضاءة. ثم إننا في حالة حرب. لأن أرضنا محتلة: أرضنا المصرية والسورية والفلسطينية.

والتسليح يحتاج إلى أموال كثيرة جدا.

والأسلحة مثل موضات السيدات تتغير كل سنة وكل سلاح له مضاد. ولا بد من أن تشتريه ... وأعظم تجارة في العالم هي تجارة السلاح الروسي والأمريكي والفرنسي والإنجليزي. ونحن لا نستطيع أن ندفع كل ذلك. وإنما على الدول الشقيقة الغنية أن تساعدنا وهي في ذلك تساعد القضية العربية. فلولا أن هناك دولا تدافع ودولا تدفع، لاحتلت إسرائيل كل الأرض العربية... ولتحولنا بسهولة إلى هنود حمر في هذه المنطقة. لأن العرب ينفقون أموالهم على بطونهم.

بصراحة أكثر.... ينفقون أموالهم على الرقيق الأبيض. و بصراحة أكثر : إن بعض الأغنياء لا يستحقون هذا الثراء لأنهم لا يعرفون كيف ينفقونه ولذلك يتولى عنهم الإنفاق سماسرة في أمريكا وبريطانيا واليابان....

ثم إن حرب أكتوبر قد رفعت سعر البترول .. وجعلت الذهب الأسود يقف على حيله أي يتحول من بحيرة إلى جبل من الذهب.. والجبل ذهب يتراكم ويتزايد من تلقاء نفسه، مهما أخذنا منه فإنه لا يتحرك.....

وأشقاؤنا دفعوا الكثير. ولكن القضية لم تحل بعد. ولابد أن يعاونونا وإلا ...

وإلا أشياء كثيرة جدا من الممكن أن تحدث في بلادنا وفي بلادهم. أو تحدث خارج بلادنا وخارج بلادهم وتقضي على الجميع – كالتسلل الشيوعي في الصومال والسودان وليبيا وايمن وأثيوبيا والمحاولات الشيوعية في مصر....

فما هو الحل؟

إن الأسعار في الدنيا كلها مرتفعة. ومستوى الحياة رهيب. ولا يوجد بلد في الدنيا لا يشكو من قسوة الحياة. وفي مصر أناس كثيرون جياع. وفي مصر أناس كثيرون يعيشون بصعوبة .. لأن المال لا يكفي .. وكل إنسان يتمنى أن يكفيه مرتبه ويتبقى من مرتبه شيء يشتري به قطعة أرض ويبني عليها فيلا ويؤجرها مفروشة وما زاد عن ذلك يشتري به شقة لكل واحد من أولاده الخمسة – كل ذلك بمرتبه الشهري الذي لا يتجاوز الثلاثين جنيها؟!.

كيف ذلك؟

ومن حق كل إنسان أن يكون قادراً على كل شيء. ولكن كيف ذلك؟

مسافة كبيرة جدا بين أحلام الجائعين في سوق العيش، وبين سوق العيش والأرز والسكر... مسافة طويلة وتزداد طولا كلما تقدمت السن بالإنسان... وفي الطريق إلى أحلامه يداخله اليأس – ولا ألومه.

ويصبح اليأس جواً عاماً يتنفسه كل الناس وعندما ييأس الناس، يصبح العلاج صعباً، فليس علاج اليائس أن نحقنه بالأمل فقط. فإن الأمل، ليس إلا وعداً بسداد دين من الديون. ولكن علاج اليائس أن نعطيه.

ولكن الدولة لا تستطيع أن تعطي كل إنسان إلا بقدر ما يعمل. ونحن دولة نامية أو أقل من ذلك ولابد أن تعمل فالذي يعمل يجد. والذي يجده محدود، مادام موظفاً أميناً و 90% منا موظفون محدود الدخل....

أي أننا أناس فلوسهم لا تزيد ويدفعون الضرائب ويستحيل عليهم أن يتهربوا منها. ثم يتفرجون على أناس يكسبون كثيراً ويتهربون من الضرائب أكثر. .. والذين يستفيدون بكل ما تقدمه الدولة من خدمات هم الذين لا يدفعون الضرائب، وإذا دفعوا لم ترهقهم، أما نحن الذين ندفع الضرائب، وإذا دفعوا لم ترهقهم، أما نحن الذين ندفع الضرائب، فنحن أيضاً الذين نعاني من سوء الخدمات ونشكو من ارتفاع الأسعار.

www.anwarsadat.org

فكيف تواجه الدولة هذا المرض، أو هؤلاء المرضى يجيبوهم- مع ملاحظة أن الدولة أيضاً أكثر مرضاً من الناس أي أن الدولة وهي الطبيب، تعاني أكثر مما يعاني المرضى أي الشعب. فالشعب مريض والدولة أيضاً.؟

نعود إلى وجهتي النظر في مصارحة المريض: فالدولة يجب أن تصارح الناس. لكي تتعاون مع الناس في علاج هذه الحالة، حالة الشعب وحالة الحكومة.

هل نقول للناس: لا داعي للكماليات؟ ممكن أن يقال ذلك بشرط أن نرفع أسعار الكماليات تماماً. وبشرط أن نحدد بالضبط ما هي الكماليات ومن المؤكد أن الرغيف والشاي والأرز والسكر والفول والعدس والكيروسين والبوتاجاز ليست من الكماليات.

أما السجائر فمن الكماليات. وكل بلاد العالم عندما تريد المزيد من الضرائب فإنها تبدأ بالسجائر أو الخمور أو غيرها. ولكن يجب أن تكون الدولة قاطعة في هذا الذي تفعله بحيث يقع القانون على الجميع دون تمييز أو تفرقة ومن الممكن أن تعلن الدولة سياسة " التقشف".

كثير من الدول فعلت ذلك في أثناء الحروب وبعدها بشرط أن يكون التقشف عاماً، أي أن تبدأ الدولة بأجهزتها، ثم بجميع الناس.

ولكن الدول تخاف من كلمة " التقشف " لأن الناس يتوقعون نوعاً من التفريج المستمر. فإذا طالبتهم الدولة بالتضييق ضاقوا بها....

ثم إن الحكومات تجيء بعد انتخابات شاقة، تبذل فيها الوعود للناس. ومن بين هذه الوعود أن تحقق للناس آمالهم وأحلامهم وأن تخفف عنهم. فإذا جاءت وطالبت بالتضييق عليهم، كان ذلك خداعا للشعب... وتحللاً من الوعود، وصدمة عنيفة لثقة الناس في الذين انتخبوهم لمجلس الشعب، أو أتوا بهم إلى الحكم.

ولكن الناس من الممكن أن يتحملوا التقشف إذا كان عاماً- أي أن المساواة في التقشف عدل.. ولكن الذي يوجع بطون الناس وقلوبهم أن يجدوا تقشفاً هنا، وإسرافا هناك... ثم نطالبهم بأن يمسكوا أيديهم، بينما نحن نطلق أيدي قلة أخرى من الناس....

www.anwarsadat.org

فهل الحكومة صارحت الشعب بحقيقة الوضع الاقتصادي وسوء الحالة المالية في مصر؟

إن الحكومة قد أعلنت أن هناك عجزاً هائلاً في الميزانية. وأن هذا العجز لا يمكن أن نقضي عليه إلا بأن نقترض وأن نوفر وأن تجمع الدولة المزيد من الضرائب. وأن ترفع يدها عن كثير من السلع التي تساندها الدولة... هل قالت الدولة ذلك؟

نعم قالت ذلك.

هل الدولة واجهت الناس بصراحة تامة بهذه الأوضاع؟

نعم.

هل انتشرت هذه الصراحة على أوسع قواعدها الشعبية، بالميكروفون والشاشة والصحيفة؟

لا أظن أن الدولة فعلت ذلك بدرجة كافية. فإننا نعلم أن الحالة المالية سيئة، وأنها سوف تظل كذلك. ما دامت الأسعار العالمية عالية، وما دامت أموال كثيرة تذهب لتسليح الجيش على حساب التنمية وما دام عددنا يتزايد.

وما دمنا لا نعمل بدرجة كافية. لأنه من الضروري أن ننتج، حتى لا نشتري كل شيء من الخارج وحتى لا تدفع الدولة الكثير جداً من الأجور في مقابل القليل جدا من العمل الذي نؤديه!.

أن د. القيسوني وجماعة الاقتصاديين، أطباء صارحوا المريض بأنه لا علاج له إلا إذا ضربوه على رأسه... ومعنى ذلك أن " داء " المريض ليس كافياً. ولذلك كان لابد أن يعاقبوه على مرضه فأعلنوا هذه القرارات مرة واحدة. فضاق المريض من طريقة الإعلان.. ومن المفاجأة لأن المريض- أصلاً- قد ضاق بكثير من متاعبه اليومية المرتب والمواصلات والسكن وارتفاع الأسعار. إن الناس في ضيق يومي. وليس لديهم أي استعداد لأن يعاقبهم أحد على ذلك. وإنما الشعوب كالأطفال يتوقعون المعجزات من آبائهم- والحكومة هي الأب والأم للشعب. صحيح أن الشدة مطلوبة ولكن ليست هذه هي الشدة وإنما هذه هي القسوة الغاشمة!.

إن الذي أعلنه د. القيسوني وجماعته صحيح علميا... ولكنه عنيف إنسانياً واجتماعياً....

فهل كان الواجب أن يكذب على الناس؟ إنها خيانة للأمانة أن يفعل ذلك. ولكن واجبه يطالبه فقط أن يقول كلمة الحق على درجات... أو أن يمهد لها.. فلا لوم عليه إذا قال. ولكن اللوم عليه أن لم يقل الحق بصورة تدريجية.

إن د. القيسوني وجماعته وعلماء اقتصاديون، ولكن ليسوا سياسيين. ولذلك كان من الضروري أن يتولى الحزب الحاكم " تسييس" هذه الفلسفة الاقتصادية. أو هذه الإجراءات العنيفة. أو هذه الإجراءات غير المتوازنة – لأنها وضعت السجائر والبوتاجاز مع الرغيف في ميزان واحد... أو على كفتين متعادلتين من ميزان واحد...

لقد رأيت في سنة 1959 إجراء مشابهاً، ولنفس السبب، في إندونيسيا. فقد أعلن سوكارنو في أغسطس من ذلك العام إلغاء الورقة ذات المائة روبية. وفي ذلك اليوم كنت قد صرفت شيكاً بمائتي جنيه ولم أكد أخرج من باب البنك حتى وجدت أن الذي أضعه في جيبي لا يساوي وزنه تراباً. وكانت حجة سوكارنو أنه إذا لم يفعل ذلك مرة واحدة تهربت الأموال كلها إلى الخارج – وخصوصاً أن إندونيسيا ثلاثة آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها، ولا يمكن مكافحة التهريب منها وإليها. وهذا ما دفع د. القيسوني وجماعته إلى أن يعلنوا إجراءاتهم فجأة. فقد خشى إن هو هيأ الأذهان لذلك القرار، أن تتكدس البضائع عند بعض الناس، فيرفعوا أسعارهم على ملايين المستهلكين.

إنه الخوف من اللصوص هو الذي دفعه إلى معاقبة اللصوص والأبرياء في وقت واحد.

ولكن رفع الأسعار بهذه الصورة العنيفة، هو الذي يستحق المؤاخذة فقد كان من الضروري التمهيد لذلك في الحزب الحاكم... وفي مجلس الشعب، وفي الصحف ليشارك الناس، وليستعدوا نفسياً لشيء من ذلك.

وهذا الذي جعل الرئيس السادات يصحح هذا الوضع الشاذ. أو الوضع المقلوب فيعيد كل شيء إلى الحزب وإلى مجلس الشعب.

وقد حدث في بريطانيا في الشهر الماضي. أن ظل الناس يتوقعون ويناقشون في الصحف زيادة الأسعار. حتى جاءت الحكومة وأعلنت في مجلس العموم ضرورة رفع

الأسعار عن المأكولات والمشروبات وقد شاهدت هذه المناقشات في مجلس العموم وفي التليفزيون. وتقرر ذلك واتجه الناس إلى حياتهم العادية يدبرون أنفسهم لمواجهة هذا التقشف الجديد....

ومن الواجب على الدولة وعلينا أن نصارح الشعب بأن الذين يدفعون لنا الأموال: قروضاً أو دعماً سواء كانوا حكومات شقيقة أو صديقة أو بنوكاً يسألون : أين تذهب كل هذه الفلوس؟ هل تضيع على الكماليات؟ هل تنفقها مصر على الضروريات؟.

فلابد أن نكون جادين في مواجهة هذا الموقف الخطير...

ولو كان السلام قد تحقق في الشرق الأوسط، لطلبنا تخفيض القوات المسلحة والتسليح.. ولكن السلام لم يتحقق بل إن الطريق إلى جنيف ما يزال صعباً جداً ومن الممكن أن تتفجر الحرب في آية لحظة، ولا يزال السلاح ضرورياً. وإذا كان السلاح ضرورياً فمئات الملايين من الجنيهات مطلوبة سنوياً للتسليح.....

إلا إذا استطعنا أن نفصل ميزانية التسليح عن الميزانية العامة. وتكلفت الدول الشقيقة بالإنفاق على التسليح كله عاماً بعد عام.

ولذلك يستحيل علينا أن نكون في حالة استرخاء عسكري.....

والدكتور القيسوني وجماعته قد اختاروا موقفا صعباً... فهم الآن يحتاجون إلى من " يبرر" لهم هذه الإجراءات .. بدلاً من أن يجدوا من " يفسر" للناس هذه الإجراءات...

وكان الأصح أن يجدوا من " يمهد" لهذه الإجراءات...

إن السياسة المعقولة هي التي تقوم على مصارحة الناس بالحقيقة .. ولكن بشرط أن تجيء هذه الحقيقة بالتدريج .. وقديماً قالوا: إن الحقيقة جاءت إلى الناس عارية فاستنكروا ذلك منها.. فاختفت وارتدت أجمل ملابسها، فأقبل الناس عليها...

فليس المطلوب أن يكذب علينا دكاترة الاقتصاد وإنما فقط أن يغطوا عباراتهم وأن يمهدوا لإجراءاتهم حتى لا يساء فهم كل شيء. وسوء الفهم وسوء الظن هواء يتنفسه الناس المرهقون المعذبون في الأرض وفي كل زمان...

وأنا لا أطلب من د. القيسوني ولا أي رجل آخر من علماء الاقتصاد أن يكون عمر الشريف، له نظرات ولمسات وهمسات.. ولكن أستاذ لا يحسن مواجهة الناس. وليست هذه صناعته... ولذلك فقد أثار الناس أكثر عندما راح يحدثهم بنفسه وبهدوئه ونعومته كأن الأمر لا يعنيه... مع أن الأمر يعنيه جداً... ولكن لا هو الوجه ولا الصوت ولا الأسلوب الجماهيري .. وهي ليست غلطته... لا شك في ذلك...

فما الذي حدث في مصر؟

سخط عام. أناس خرجوا إلى الشوارع .. خرجوا من ملابسهم وراحوا يهدمون ويشوهون ويخربون .. يهدمون الممتلكات الخاصة والعامة . لماذا؟.. لأنهم في حالة غضب.

ولكن الذين يتربصون لمصر وسلامة مصر وسلام الشرق الأوسط هم الذين ظهروا من تحت الأرض ومن تحت اليسار الشيوعي ليركبوا دخان التخريب وألسنة النيران. لماذا؟.

لأن مصر تسعى من أجل السلام . وتتزعم حملة السلام. والشيوعيون لا يريدون السلام. لأن السلام معناه رخاء مصر.واستقلالها. وهم لا يريدون لمصر رخاء أو استقلالا. وإنما يريدون لها الخراب الذي يجعلها تسقط تحت أقدامهم. إن الشيوعيين لا يريدون لا يريدون السلام ولا العدل في هذه المنطقة. وإنما يتربصون بكل الأنظمة الوطنية ويؤلبون عليها الساخطين والمخربين بين البسطاء والصغار. ..

فالذي جرى في القاهرة والإسكندرية وغيرهما ليس له ما يبرره. .. ولكن خراب مصر وتلطيخ صورتها، وتعطيل دورها، هو الذي يهم العملاء من الخونة – مع الأسف!

هل هي غلطة أن تكون في مصر حريات؟

هل هي غلطة أن تكون هناك أحزاب، من بينها حزب شيوعي؟

هل يجب أن يندم أنور السادات على أنه سمح بحرية الرأي وحرية الاختلاف من أجل مصر؟ هل عليه أن يندم لأن الخلاف أدى إلى الصراع؟.

www.anwarsadat.org

لقد كتبت هنا من أسابيع أقول: إننا يجب ألا نجعل رجلاً مثل أنور السادات، يندم على أنه سمح بحرية الرأي وتنظيم الآراء وتنظيم الاختلاف والمعارضة، وإن هذه تجربة رفيعة يجب أن نصونها ... وأنه إذا حدثت أخطاء فيمكن تقويمها بالصورة الشرعية....

فما الذي يريده الشيوعيون أكثر من أن يكون لهم حزب....

وإذا طالبوا من الشعب أن يختارهم، لم يختر أحدا. لقد أوهموا الجماهير أنهم كثيرون. والحقيقة أنهم ليسوا كذلك. ولكنهم لا يفضلون أن يعملوا في النور، وإنما أن يعملوا في النار والدخان وفي الليل وتحت الأرض....

وإذا لم نكن نعرف ما الذي يمكن أن يفعلوه.. فقد عرفنا وإذا كنا، مع الفرحة بالحرية والدعوة للسلام قد نسينا ذلك ... فقد تذكرنا اليوم كل شيء وبصورة عنيفة.....

وهي تجربة عنيفة. ومحنة لن تعود....

وإذا كان أشقاؤنا في شك فيما يمكن أن يفعله الشيوعيون في مصر أو في غيرها من البلاد العربية، فهذه صورة صارخة دامية....

وإذا كنا قد ركزنا عدونا في إسرائيل، فإن هناك من هم أسوأ وأشد عداوة من إسرائيل... بيننا في مصر وفي غيرها وربما في غيرها من البلاد الشقيقة أكثر....

وما حدث هو مؤشر خطير يدل على أن النار تحت الرماد... وإنه يكفي أن يهب على الرماد هواء غضب أو سخط، لتنفتح علينا عيون النار....

فيا أيها العرب في كل مكان انتبهوا: ما الذي يجري حول السودان وفي ليبيا وفي اليمن وفي الصومال وأثيوبيا وأنجولا... وأخيراً في مظاهرات مصر. فلا تتفرجوا علينا... لأن النار ليست بعيدة عن آباركم!

www.anwarsadat.org